(العقل الحر اللامحدود)

على هذه الأسس تقوم حرية العقل، كلها أوبعضها. ويمكن ذكر غيرها لكني ذكرت ما تيسّرت حين وضعت عناوين الرسالة قبل أكثر عشر سنوات وعلّقت عليها اليوم بتعليق بسيط حسب ما حضر من خاطر.

١-الصانع المتقن. أي الذي صنع العقل هو الله وهو متقن في صنعه والعقل أتقن ما صنع وكل صنعه مُتقَن، وينبني على ذلك أن عمل العقل من حيث ذاته متقن بالتالي لا يوضع عليه حدّ من خارجه ومن غيره لأن الحد المقبول يوضع لدرء فساد أصيل في الشيء أو متوقع منه حين ينطلق بإظهار ما في ذاته، فلما كان العقل حسن في ذاته فكل ما يخرج من العقل من حيث هو عقل يكون حسناً كذلك، فلا موجب لوضع حد عليه من خارجه أصلاً.

٢-اللاممكن لا يمكن قبوله. فالأفكار التي ينطق بها العقلاء لا تخرج عن إحدى ثلاثة احتمالات، إما فكرة حقيقية واجبة الوجود وهذه يجب قبولها، وإما فكرة مستحيلة الوجود فهذه لن يقبلها العقلاء بالتالي لا معنى لوضع حد على العقل في التحدّث بمثل هذه الأفكار المستحيلة لأن العقلاء سيرفضونها لاستحالتها وكذلك لأن التحدّث

بها يدلّ على أنها صادر من جهة غير عقلية بحتة فتكشف عن شؤون النفس والموجودات والمقاصد التي يضمرها الناطق وفي هذا معرفة نافعة من أكثر من وجه. وأخيراً فكرة ممكنة الوجود، وهذه تختلف وجهات النظر فيها بالتالي يحق لكل عاقل أن ينظر فيها وعليه لا موجب للحد من إظهار العقل لها. فما لم يكن ممكناً لن يقبله عاقل فظهور اللاممكن تمرين للعقل على اكتشاف الحق من الباطل والصواب من الخطأ.

٣-الشعور مبني على عقل. مشاعرك إذا حللتها ستجدها راجعة إلى عقلك وأفكارك ورؤيتك للوجود وشؤونه، فلابد من تحرير النظر في العقل مباشرة حتى لا يختفي وراء المشاعر التي يزعم صاحبها أن شعوره شيء قائم بذاته وليس وراءه عقل فلابد من تحرير العقل للنظر في كل شعور، وكذلك لابد من تحريره حتى يكوّن أحسن المشاعر المبنية على أحسن المعقولات والوعي بها.

٤-الأئمة متهمين. لا يمكن الثقة المطلقة بأي إنسان لأنه قد يكون صاحب هوى أو أخطأ أو ما وصلنا عنه غير دقيق أو لم نحسن فهم قصده ولم نعرف برهانه. فعلى كل وجه لا يمكن الاعتماد على تقليد

شخص، على فرض الحاجة أو تحقق الكرامة الإنسانية بمثل هذا التقليد.

٥-العقل والروح وجهان لعملة واحدة. الحقيقة التي نسمّيها روح وعقل هي حقيقة واحدة، هي نور واحد، لها أسماء متعددة لكنها في الوجود شيء واحد، لكن حين تتوجّه نحو الله والغيب نسمّيها روحاً وحين تتوجّه نحو العوالم والأسباب قد نسمّيها عقلاً وهكذا باعتبارات مختلفة توجد أسماء مختلفة. فلما كانت الروح من الله ومن أمر رب النبي الذي هو نور من نور الله وشعاع من مشكاة النور الإلهي، كانت حريتها وعدم جواز التعرّض لها بالحد واجب على العقلاء أصحاب الشريعة وأتباعها، وحيث أن العقل هو الروح فالعقل كذلك يجب تحريره وعدم التعرّض له من خارجه بقيد يعيق تصرّفه وسعيه.

٦-الغيب ليس تفسيراً. فالذي يحيل تعليل الشيء أو سببه على الغيب بمعنى الغائب غير المعقول ولا المشهود ليس تفسيراً لشيء لأن أي ناطق قد يخترع غائباً وغيباً من عند نفسه وحيث أننا لا نستطيع التأكد من أقوالهم فلا قيمة لتفسيرهم. فلا يبقى إلا التفسير الذي

يدركه العقل بكل سعته وأبعاده ويمكن التأكد من صدقه بنحو مفتوح للعقلاء.

٧-المجتمع للمتعة الجسمانية. فأصل تكوين المجتمع كان الحاجة إلى تحصيل المتع الجسمانية والأغراض الطبيعية والأمن المادّي، بالتالي ليس للمجتمع التعرّض للعقل ونطقه وبحثه وتعبيره عن نفسه لأنه خارج سلطة المجتمع الذاتية، فما برز بسبب تقيّد بسبب بروزه، وسبب بروز المجتمع الخوف على الجسم وتعبه وليس العقل وبحثه وحججه ومنطقه. فأي قيد اجتماعي على العقل وتعبيره عن نفسه هو قيد غير مشروع بالذات والأصالة ولا يحتاج إلى برهنة.

٨-الحد مرض. ما معنى وضع حد على العقل؟ معناه أن شيء لا يمكن التفكير فيه أو لا يمكن التفكير فيه إلا من زاوية معينة أو يمكن التفكير فيه لكن لا يمكن التكلّم عنه، أما ما لا يمكن التفكير فيه فهو مرض إذا وضع من الخارج والغير لأن الشيء إن كان قابلاً واقعياً للتفكير فيه فمن المرض منع العقل من التفكير فيه وممارسة قوته الطبيعية، وإن كان غير قابل أصلاً للتفكير فيه والعقل سيعجز حين يفكر فيه من الوصول إلى نتيجة مقبوله له بحسب منطقه الذاتي فإذن الواجب ترك العقل يكتشف عجز نفسه بنفسه وسيمرض العاقل

حين يشعر أنه لم يفكّر لأنه خائف من واضع الحد المغاير له والمفروض عليه بالقهر دائماً والتخويف العاطفي والذي هو بدوره مرض آخر. وأما التفكير من زاوية معينة فهذا يدل على إمكانية التفكير من زوايا أخرى فيمرض العقل حين لا يرى الشيء من كل زواياه الممكنة. وأما التفكير مع عدم التكلّم فمثل الشهيق بدون الزفير وهو مرض بل اختناق وموت وهو قضية أخرى خارجة عن نفس تحرير العقل وتحرره داخل نفسه.

٩-القرءآن أبو الأحرار. الناظر في القرءآن بتجرّد يكتشف أنه فتح الأبواب كلّها للعقل للنظر وبعثه بكل باعث وشرح العقل للعقل وشرح عملياته ومعتقداته المختلفة ودرجاته وكيفية تقويته وسبب ضعفه وعرض الأفكار كلّها مستحيلها وممكنها وواجبها على العقل ولم يحجب عنه شيء كأن يعرض عليه فقط ما هو حق ويخفي عنه الباطل بحجّة حماية العقل كلاّ بل عرض على العقل كل شيء وقال له "انظروا" و "أفلا تعقلون".

١٠-في الفكر لا يوجد سد للذرائع. قد يوضع الحد خوفاً من تطور الفكرة إلى عمل والعمل إلى عدوان أو فساد فيتم سد ذريعة ذلك بتقييد العقل نفسه كونه المحطّة الأولى لقطار الفساد هذا على فرض أنه فساد فعلاً. هذا منطق ضعيف وخطير. الطريق إلى منع تطور

فكرة إلى عمل فاسد هي بإبطال الفكرة نفسها والوعي بفسادها وقطعها من جذورها الوجودية والنفعية. هذا أمر. الأمر الآخر، نفس فكرة سد الذرائع دليل على أن الفكرة نفسها لا تفسد شيئاً لكنها حسب منطق الذرائعي المحرّك الأول للفساد لكنها ليست فساداً بحد ذاتها، وهذا يعزز ما نقوله من كون الفكرة نفسها حسنة بغض النظر عن الآثار العملية التي قد تنتج أو لا تنتج عنها بعد ذلك مع دخول عنصر الإرادة والجسم والتفعيل السلوكي. فالفكر نفسه برئ من كونه ذريعة إلى صلاح أو فساد على المستوى العملي الظاهري. لذلك ليس كل ناظر في فكرة ينتهي إلى نفس النتائج العملية التي انتهى إليها غيره وإن كان كلاهما نظر في نفس الفكرة، فلو كانت الفكرة ذاتياً تؤدي إلى نتيجة محددة لوجب أن نرى كل من ينظر فيها بل حتى كل من يقبلها ويعتقد بها يعمل نفس الأعمال ومن الواضح لكل ناظر في نفسه وفي غيره أن الواقع ليس كذلك، إذ ينظر في الفكرة القابل والرافض لها، وإذ يعتقد بالفكرة عشرة فلا يعمل بلوازمها العدوانية إلا واحد من العشرة. وعلى هذا المنوال يوجد للفكرة تجرّد ذاتي وانفصال نسبي عن العمل، وبحكم هذا التجرّد والعلو والكينونة الغيبية في ضمير العاقل لا يجوز وضع الإنسان على نفسه فضلاً عن وضع الإنسان على غيره قيود حتى لا يفكّر في شيء خوفاً من تطور الفكرة إلى سلوك اجتماعي وطبيعي فاسد وعدواني.

١١-في الفكر لا امتياز للعمر. أي لا يهمّ في ذات الفكرة ما هو العمر الجسماني لصاحبها ، فقد يأتي عجوز بفكرة فاسدة ويأتي طفل بفكرة صالحة، وقد يعتقد الشيخ بالخرافة ويعتقد الصبي بالحقيقة. بالتالي لا معنى لوضع الكبار في العمر قيوداً على الصغار في العمر كأن يقال لابد من قبول كل فكرة يأتي بها شخص أن عمره أكبر عدداً من عمر غيره، بل لابد من النظر في ذات الفكرة.

١٢-قد يكون الجواب الفعلي أنه لا يوجد جواب فعلي، الآن. أي لا خشية من عمل العقل وعدم اكتشافه لجواب ما في المسألة التي يبحثها ، فعدم المعرفة مفيدة من وجه ومقدمة لبحث لاحق يتمم الناقص ويكمل البحث من حيث توقف الأول. فوضع قيد بحجّة عدم وجود جواب بحكم تجربة شخص آخر للتفكير في المسألة ووصوله إلى سد ، هو وضع غير مبرر. نعم أنت لم تصل إلى جواب لكن غيرك قد يصل، فاتركه لعله يصل فتنتفع بفكره، بل شجعه على التفكير لعله يكتشف أو يرسم ما لم تستطيع أنت اكتشافه ورسمه. عدم العلم ليس حجة ضد العقل، لكنه باعث على مزيد من العقل والحاجة إليه.

١٣-التهديد الفعلي آية الضعف. حين تهدد شخصاً من التفكير في شيء فأنت تكشف بذلك عن ضعف عقيدتك وفكرتك، لأن تهديد المفكّر حتى لا يفكّر يكشف عن خوف المهدد من وصول المفكّر إلى نتيجة مغايرة لما عنده، فلو كان عنده الحق الصريح القاهر كما يزعم فلماذا يخاف. وعلى ذلك لابد من تركيز العقلاء تحديداً على المواضيع التي يوجد من يهدد المفكّرين فيها، ولابد من السعي المضاعف في هذا الشأن، حتى نرى ما هو الشيء الذي يخافه المهدد، وكذلك حتى لا يتجرأ بعده أحد على تهديد المفكّرين وتخويفهم من التعقل الحر.

١٤-العقل ميزان. في العلميات قد توجد حجج تؤيد فكرة وحجج تؤيد فكرة أخرى، فالعقل حينها يكون ميزاناً يختار الأرجح والأقرب إلى اليقين والمؤسس على قواعد أسلم وأدق. وفي العمليات قد توجد حجج تؤيد منفعة شيء وحجج تؤيد منفعة ضده، أو توجد منافع وأضرار للعمل الواحد والشيء الواحد، فحينها كذلك يكون العقل ميزاناً ويختار الأرجح وما يراه العقلاء الذين سيعملون بالنتيجة أنه الأرجح فيما بينهم. فتعدد الاعتبارات وتضارب الحجج واختلاط الأمور مرّة أخرى ليس حجّة لصالح تقييد العقل لأنه إذا كان العقل وهو حر يرى الأمور مختلفة ومتضاربة فماذا سيكون حاله إن تقيّد

بقيد خارجي واعتمد التقليد الأعمى وخاف وارتعب وانكمش فمن باب أولى سيكون حال الناس أشد سوءاً. التضارب والاختلاط يقضي بوضع مناهج أدق وأقرب لاكتشاف دقائق كميات وكيفيات الأمور حتى يحسن وزنها والتخيّر بينها، وليس شلّ العقل بالخوف والتقليد والتقييد.

١٥-النظريات زوايا نظرات. قد توجد أكثر من نظرية حول شيء واحد، فإذا نظرت بتحرر في هذه النظريات ستجدها عادةً نظرات من زوايا مختلفة ولكل واحدة منها قيمة في تحصيل رؤية أوضح للشيء. وبناء على ذلك نحتاج أكبر قدر ممكن من نظريات العقلاء حتى نكتسب أحسن وأشمل نظرة للشيء.

١٦-سعة العقل أم الزهد الدنيوي. كلما ازدادت سعة عقلك كلما ازداد زهدك في الدنيويات، لأنك ستجد اللذة العقلية التي ستغنيك عن معظم اللذات الدنيوية خصوصاً ما غلب ضرره نفعه منها، وكذلك لأنك ستركز على المهمات والضروريات وتميل إلى البساطة في أمور الدنيا لكي يزداد صفاء عقلك ودقته وتفرغه للنظر وتنفق أكبر قدر للطاقة في العمل العقلي بدلاً من الجهد البدني والخارجي الذي لا مقصد له في الحقيقة إلا استهلاك الطاقة النفسية لتحصيل الراحة،

وكذلك لأن العقل كلما كبر وتعمق كلما استشرف على الآخرة وأحوالها بالتالي يصبح أكثر استعداداً لها أو يميل إلى ذلك قدر قوّة وبركة عقله، وأسباب أخرى تربط بين العقل والزهد.

١٧-الجماهير حمير. حميرتهم تأتي من عدم استعمالهم عقولهم بشكل مستمر وفي المواضع الحرجة والمسائل المهمة ويسمحون لعواطفهم أن تقودهم وحواسهم أن تخدعهم، فمن أراد التخلّص من هذه الوصمة-وصمة العار على الإنسانية-فعليه بتحرير عقله واستعماله بأكبر قدر ممكن. فالعقلاء نخبة الناس وصفوتهم، فاعمل على أن تكون من الصفوة.

١٨-الفعل يعتمد على العقل. كل فعل يعتمد على تعقل بنحو ما ولو كان ناقصاً ومشوهاً، بالتالي لا يمكن للتركيز على الفعل وإغفال مركزية ومصدرية العقل، إذ التركيز على ما تعتمد عليه خير من التركيز على ما يعتمد على ما تعتمد عليه. فالزعم بأن الاهتمام بالعقل هو شأن نظري يقوم به ناس لا يفعلون شيئاً ليس صحيحاً وإن كان يقع أحياناً لأسباب لا علاقة لها بذات العقل ولكن لها علاقة بأبعاد عملية وعادة اقتصادية أخرى كأن تكون مهنته هي صناعة أفكار كالأكاديمي أو الإعلامي فلا يبالي بغير ذلك. أما نفس العقل

فلا يشلّ الفعل لكنه يعززه وكلما كان العقل أعلى كان الفعل أرقى وأكثر تأثيراً لأنه يحسن تخيّر أهدافه ووسائله ويراعي الزمن ويصبر بحكم حضور عقله ورسوخه ومعرفته لطبيعة الدنيا وتدرجها وبطئها.

١٩-الذي لا يريد التفكير فلا يفكّر. تحرير العقل لا يجبر المستعبد عقلاً على التفكير، لكنه يبعده عن طريق العقلاء في استعمال عقولهم وذلك بأن يبتعد عن طريقهم عبر عدم ارتكاب العنف ضدهم وعدم تحريض دولته والهمج الذين يتبعونه على العقلاء والمفكرين ونحو ذلك، لكن هذا لن يجبره على التفكير قسراً.

٢٠-البعض يريد العقل حين يكون في صالحه ولا يريده حين لا يكون في صالحه. على طريقة "إن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين" لكن حين لا يكون الحق لهم يفرّون من العاقل "كأنهم حمر مستنفرة. فرّت من قسورة". مثل هذا الصنف يجب كسره بإظهاره نفاقه وبالتركيز على تطفيفه وتناقضه وتذكيره وتذكر الناس بمعاييرة المزدوجة في تعاطيه مع العقل ولوازمه. وعلى كل حال لا تجوز مراعاته بحال في تقييد العقل ونفاقه عليه ولا يؤثر على العقلاء.

الحاصل: فكّر بما تشاء، وتباحث مع المفكّرين، واترك عقلك رهواً وسارحاً يغطّي ما يشاء ويذهب حيث يشاء، ودعه يقف حين يقف لأنه وقف وعجز لا غير. حرر عقلك مطلقاً واكسر كل قيد مطلقاً.

....